قضايا لسانيات النّص في كتاب (العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونقده) لابن رشيق.

أ. عبد العزيز حاجي

جامعة محمد بوضياف ـ المسيلة

البريد الإلكتروني: hadj_aziz@ymail.com

ملخص البحث: تتنزّل مادة هذه الورقة البحثية ضمن الدراسات اللّسانية التي تسعى إلى ربط الدَّرس اللِّساني النّصِّي الحديث بالبحث النقدي والبلاغي في التّراث العربي ، وذلك في محاولة لاستنباط ما في تراثنا من كنوز وذخائر يكون قد غفل عنها بعض الدارسين المحدثين وهم في غمرة تلهُّفِهم على ما يَخَالونَه من مستجدّات البحث اللّساني الحديث. وفي هذا الإطار تأتي أهمية هذه الدراسة التي تروم البحث عن قضايا النّصِّية في كتاب (العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونقده) **لابن رشيق** ؛ وذلك انطلاقا من أهم القضايا النقدية والبلاغية الواردة فيه ؛ من قبيل: بنية النص الشِّعري ، العلاقة بين اللفظ والمعنى ، الظروف المصاحبة لإنتاج الخطاب وفق المبدأ البلاغي العام (لكل مقام مقال)،التأثير والتأثُّر في العملية الإبداعية ، التَّكرار وعلاقته بالغرض والبنية الدلالية للنّص.

الكلمات المفتاحية: بناء القصيدة ؛ التفاعل النصِّي ؛ رعاية الموقف ؛ الاتِّساق ؛ الانسجام ؛ التَّكرار النصِّي.

Issues of textual linguistics in Ibn Rashiq's book (The Mayor in the Beauties of Poetry, its Literature and Criticism)

Abstract: This paper is part of the linguistic studies that seek to link the modern textual lesson to the critical and rhetorical research in the Arab heritage in an attempt to elicit the treasures and ammunition in our heritage that have been overlooked by some modern scholars while gasping for recent

developments in modern linguistic research. It is in this context that comes this important study, which aims to search for textual issues in Ibn Rashiq's book (The Mayor "*AL- OMDA*" in the Beauties of Poetry, its Literature and Criticism); and basing on the most important critical and rhetorical issues in it: the structure of poetic text, the relation between the word and its meaning, the circumstances associated with the production of speech, the influence and vulnerability in the creative process, the repetition and its relation to the purpose and the semantic structure of the text.

Key words: structure of the poem; textual interaction; context of situation; cohesion; coherence; textual repetition.

مقدّمة . بدأت في مطلع النّصف الثّاني من القرن العشرين تتبلور ملامح نظرية جديدة في الدّراسات اللّغوية اتّخذت من النّص بؤرة اهتمامها. وقد ظهرت إرهاصات هذا التّوجّه النّصِّي على يد اللّساني الأمريكي **زليغ هاريس Zellig Harris** في عام 1952م بمقاله الشهير الموسوم (تحليل الخطاب) الذي قدّم فيه منهجا لتحليل الخطاب المترابط ؛ القائم على إمكانية تجاوز قصر الدّراسة على العلاقات بين أجزاء الجملة الواحدة ، والدّعوة إلى ضرورة ربط اللّغة بسياق الموقف الاجتماعي. ثُمّ بدأ هذا العلم الجديد يتشكّل على يد كوكبة من الباحثين أبرزهم **هاليداي Halliday ورقية حسن Hasen *Ruqaiya*** ، **وتون فان دايك Van Dijk *Teun*** ، وترسّخ بعد ذلك على يد **روبرت دي بوجراند Robert De Beaugrand** من خلال مؤلَّفه (النص والخطاب والإجراء) الذي عرض فيه المعايير السّبع التي تُحقِّق للنّصِّ نصّيته. وهذه المعايير هي: الاتّساق ، الانسجام ، رعاية الموقف ، القصدية ، المقبولية ، الإعلامية ، والتناص[1].

والوظيفة الأساسية لعلم اللّغة النّصِّي هي الدراسة اللّغوية لبنية النصوص ، وذلك بتحديد وضبط القوانين والقواعد التي تحكم بنية الخطاب من خلال الجمع بين أبعاد الظّاهرة اللّغوية الثلاثة: البنيوي والدّلالي والتّداولي. وبهذا كانت اللسانيات النّصِّية حلقة من حلقات التطوّر الذي عرفه الدّرس اللّغوي الحديث ، إذ حقّقت نقلة نوعية في دراسة اللّغة من خلال التعامل مع الظّاهرة اللّغوية في إطار أكثر شمولية. غير أنّ الحديث عن التقدّم الذي أحرزه

الدرس اللّغوي الحديث من خلال معطيات علم لغة النّص ؛ لا ينبغي أن يُنسينا المساهمات العربية التراثية في مجال التحليل النصّي ، فقد عني العلماء العرب ـ **وابن رشيق** المسيلي واحدا منهم ـ بهذا الموضوع عناية كبيرة ، وتركوا مباحث ودراسات خصبة تدلّ على رسوخ قدمهم في المعالجة النصية ؛ مثل المباحث الخاصة بنظم الكلام ، ومراعاة المقام ، والتفاعل النّصِّي ، وقصد المتكلم ، وكيفية تقبُّل المخاطَب للنّص ، وغيرها من المباحث التي تُعدّ من صميم الدراسة النّصِّية.

التعريف بابن رشيق: هو أبو علي الحسن بن رشيق من علماء القرن الخامس للهجرة ، ولد على الأرجح عام 390 هـ في المحمدية وهو الاسم القديم لمدينة المسيلة ، وفيها نشأ وتعلّم ، ولمّا بلغ السادسة عشرة من عمره ارتحل إلى القَيروان بتونس ، واتصل **بالمعز بن باديس** وابنه **تميم** ، كما اتصل بأهل العلم والأدب ، فأخذ عنهم ، ومنهم **محمد بن جعفر** القزاز ، **وعبد الكريم بن إبراهيم**النهشلي. وفي القَيروان ذاع صيته وطبقت شهرته الآفاق ، ثم هاجر إلى جزيرة صقلية ، واستقرّ به المقام في بلدة مازر ، وعاش فيها إلى أن وافته المنية سنة 456 هـ[(2)] . تاركاً عدة آثار في اللغة والأدب والنقد والتراجم ؛ أهمها: (قراضة الذهب) ، (أنموذج الزمان في شعراء القَيروان) ، و(كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده) وهو مدوّنة هذه الورقة البحثية.

كتاب (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده): هو أشهر مؤلَّفاته على الإطلاق ، يقع في جزأين ، ومجموع أبواب الكتاب مئة و سبعة أبواب ، منها تسعة وخمسون (59) باباً في الشعر ونقده ،وتسعة وثلاثون (39) بابًا في البلاغة وعلومها ، وتسعة (9) أبواب متنوّعة في فنون شتى.تحدّث في أبواب الشعر عن حدِّ الشعر وبنيته ، ومعانيه ، وأغراضه ، وعيوبه ، وكل ما يتصل بصناعته ، وفي أبواب البلاغة وعلومها نجد حديثا عن حدِّ البلاغة والإيجاز والبيان والبديع وما تفرّع عنهما. وهو يستعرض هذه الأبواب بابا بابا ؛ كان يحدِّد مدلول المصطلحات النقدية والبلاغية ، كاشفا عن وظيفتها ووجوه الجمال فيها. أمّا الأبواب المتنوعة ، فمنها: أصول الأنساب ، ذكر الوقائع والأيام ، معرفة الأماكن والبلدان ، ذكر منازل القمر ، وغيرها ، وهذه الأبواب يمكن أن تعين على فهم التراث الشعري. وقد استقى **ابن رشيق** مادة الكتاب من أمهات المصادر العربية في النقد والبلاغة ، وكان يُعمِل قلبه وعقله فيما يستقيه ، فيستخلص لنفسه رأيا من كل ذلك ؛ ما جعل كتابه متميّزا عن كل ما تقدّمه من الكتب ،

فنال بذلك إعجاب العلماء من أمثال **ابن خلدون** الذي قال فيه: «وهو الكتابالذي انفرد بهذه الصِّناعة وأعطاها حقّها ، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله»[3].

قضايا لسانيات النص في كتاب (العمدة):

إنّ المطّلع على كتاب (العمدة) لاشكّ في أنّه واجد فيه إشارات كثيرة تعكس مدى اهتمام **ابن رشيق** بقضايا النص ، ولعلّ من أهمها تلك النظرة الموسّعة التي تشمل النص ككل بوصفه كُلًّا موحَّدًا ، ويستوقفنا هذا الأمر في باب (المبدأ والخروج والنهاية) ، وهو باب تحدّث فيه **ابن رشيق** عن البناء الكلّي للخطاب الشعري ، المتمثل في طريقة الشعراء العرب في بناء القصيدة ونظمها ، وقد وقف **ابن رشيق** عند ثلاث خصائص بنائية تتعلّق بوحدة القصيدة الشعرية ، وهي المبدأ والخروج والنهاية. ويَقصِد بالمبدأ حسن الاستهلال والابتداء ، وقد اشترط الحسن في الابتداء ؛ لأنّه أوّل ما يصل أذن المخاطب ، وعبّر عن هذا المعنى بقوله: «الشعر قُفْلٌ أوّلُه مفتاحُه ، وينبغي للشاعر أن يُجوِّد ابتداءَ شعره ؛ فإنّه أوّلُ ما يَقرَعُ السّمع ، وبه يُستدلّ على ما عنده من أوّل وهلة..»[4]. أمّا الخروج:«فهو عندهم شبيه بالاستطراد ، وليس به ؛ لأنّ الخروج إنّما هو أن تخرج من نسيب إلى مدح أو غيره بلطف ، ثمّ تتمادى فيما خرجت إليه»[5]. ويأتي ببعض الأمثلة عن الخروج من ذلك قول**البحتري**: (من الكامل)

سُقِيَتْ رُبَاكَ بِكُلِّ نَوْءٍ عَاجِـلٍ مِنْ وَبْلِهِ حَقًّا لَهَا مَعْلُومَا

وَلَوْ أَنَّنِي أُعْطِيتُ فِيهِنَّ الْمُنَـى لَسَقَيْتُهُـنَّ بِكَفِّ إِبْرَاهِيـمَا[6]

أمّا الانتهاء «فهو قاعدة القصيدة ، وآخر ما يبقى منها في الأسماع ، وسبيله أن يكون محكما ، لا تُمَكَّنُ الزيادة عليه ، ولا يأتي بعده أحسن منه ، وإذا كان أوّل الشِّعر مفتاحًا له وجب أن يكون الآخر قفلًا عليه»[7]. فقد قسّم القصيدة على ثلاثة أجزاء كل جزء فيها يرتبط بالجزء الذي يليه ، ومن ثم فنحن نتحدّث عن نصٍّ شعري متلاحم الأجزاء ، وتوظيف **ابن رشيق** للتعبير عن هذه الأجزاء الخاصة ببناء القصيدة مصطلحات: (المبدأ ،الخروج ، الانتهاء) إنّما هو توظيف يدلُّ على أنه كان ينظر إلى القصيدة بوصفها نصًّا واحدا يأخذ بعضه برقاب بعض ، وهذا التصوّر يقترب كثيرا من مفهوم النّص في علم اللّغة النّصّي ؛ إذ يُستخدم مصطلح النّص في اللّسانيات ليشير إلى أنّ أيَّ مقطع منطوق أو مكتوب وأيًّا كان طوله يُشكِّل كلًّا متَّحِدًا[8]. وتتأكّد هذه النظرة الموحّدة للنّص الشعري عند **ابن رشيق** في قوله «وإذا كان أوّل الشعر مفتاحًا له وجب أن يكون الآخِر قفلًا عليه». فهذا القول يدلّ دلالة لا يَصِل إليها شك أنّ **ابن**

رشيق كان ينظر إلى النص الشعري بكونه لحمة واحدة محكمة النَّسْج يرتبط أوّلها بآخرها ، ويستدلّ على هذا التلاحم بين مُكوِّنات القصيدة بالنّص الآتي الذي نقله عن **الحاتمي** في معرض حديثه عن النسيب: «من حكم النسيب الذي يَفتَتِح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجا بما بعده من مدح أو ذمٍّ ، متّصلا به ، غير منفصل منه ، فإنّ القصيدة مثلها مثل خلْق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحّة التركيب غادر بالجسم عاهة تَتَخوّن محاسنه وتُعَفِّي معالم جماله..» [9] . فقد شبّه وحدة النص الشعري بجسم الإنسان ، فهو كالكائن الحي يتشكّل من أجزاء متلاحمة. وعدُّ القصيدة كائنا حيا هي الفكرة التي أوحت **لرولان بارت Roland Barthes** بالحديث عن متعة النّص حيث نظر للقصيدة على أنها جسم بشري له روح وله خفايا وأسرار ولكي نكتشف تلك الخفايا والأسرار لا بدّ من أن نتعايش مع النّص ، ونُقِيم معه علاقة حميمية حتى نصل إلى لذّة النص على حدّ تعبير بارت [10] .

ونظرة **ابن رشيق** للنّص الشعري بوصفه كتلة واحدة تتقاطع تماما مع نظرة **فان دايك Van Dijk** الذي يطلق على الوحدة الكلية للنّص اسم البنية الكبرى ، ويفترض بداية «أنّ الأبنية الكبرى للنصوص دلالية ، فهي لذلك تُصوِّر الترابط الكلي ومعنى النص الذي يستقر على مستوى أعلى من مستوى القضايا الفردية ، وبذلك يمكن أن يشكّل تتابع كلي أو جزئي لعدد كبير من القضايا وحدة دلالية على مستوى أكثر عمومية» [11] .بناءً على هذه الرّؤية يمكن عَدّ كلِّ خاصِّية من الخصائص البنائية للقصيدة (المبدأ ، الخروج ، النهاية) قضية فردية ، وأنّ تتابع هذه القضايا بشكل مترابط ومتلاحم يُشكِّل وحدة دلالية أعم وأشمل هي ما أطلق عليه **فان دايك Van Dijk**مصطلح البنية الكبرى.

إنّ هذه الخصائص البنائية الثلاثة لم يأت بها **ابن رشيق** من العدم ، وإنّما استنبطها مما وقع بين يديه من عيون الشعر العربي ، ومن ثَمّ فهو لا يصدر في تحليله من فرضيات ثم يسقطها على النصوص ، وإنّما كان يُحلِّل النّصوص الموجودة أصلا ، ويبحث فيها عن مظاهر الجمال والقصور ، وبذلك فهو ينطلق من مبدأ دراسة اللغة في الاستعمال ، وإن كان هذا الاستعمال مقصورًا على النصوص الأدبية ، وبخاصة الشعر ، وهو لا يُلام على ذلك لأنّه عاش في بيئة تعجّ بالشعر والشعراء ، وكان هو واحدًا منهم. ومبدأ دراسة اللّغة في الاستعمال يُعدُّ جانبًا هامًّا من جوهر لسانيات النص ، ويعني هذا المبدأ الانتقال من دراسة اللّغة في نظامها

الافتراضي إلى تجسيدها في الواقع من خلال استعمال النّاس لها إنتاجا وتلقِّيا في موقف ما من أجل التّواصل والتّفاعل[12].

وقد وجد **ابن رشيق** أنّ مذاهب الشعراء تختلف في افتتاح القصائد بالنسيب ، فدأْبُ أهل البادية ذكر الرّحيل والانتقال ، وتوقّع البين ، وصفة الطلول والتشوّق بحنين الإبل ، ولمع البروق... أمّا أهل الحاضرة فيأتي أكثرُ تغزلهم في ذكر الصدود والهجران والواشين وفي ذكر الشراب والندامى ، والورد والنسرين ، وما شاكل ذلك[13]. وهو أمر يدلّ على أنّ ناقدنا كان يدرك مدى تأثير البيئة في شعر الشعراء ، إذ إنّ طريقة القول تختلف من شاعر لآخر لأنّ مقام القول مختلف. ولذلك أعطى العالم الخارجي أهمية بالغة. وفي عُرف لسانيات النص أنّ المتلقي لا يعتمد في فهم النصعلى مجرّد ما يقدّمه له من معرفة ومعلومات ، بل يعتمد كذلك على ما تختزنه ذاكرته من معلومات ومعارف حول العالم الخارجي ، حيث تلتقي هذه المعرفة مع المعرفة التي يقدّمها النص فيكون المفهوم المتحصّل أو المحتوى المدرك إنّما هو نتاج تفاعل هاتين المعرفتين ، معرفة العالم ومعرفة النص[14]. فهذا التصوّر اللّساني النصّي مارسه **ابن رشيق** ممارسة فعلية ؛ وهو يستعرض آراءه في صناعة الشعر ، فهو لا يكتفي في تحليله بالمعلومات الواردة في النصوص ، وإنّما كان يستعين في ذلك بما اختزن في ذاكرته عن البيئة الاجتماعية والثقافية التي عاش فيها صاحب النص ، فكانت آراؤه النقدية تبعًا لذلك صادرة عن تفاعل معرفتين معرفة العالم ومعرفة النص.

ومن أهم القضايا النقدية التي احتواهاكتاب (العمدة) قضية اللفظ والمعنى والعلاقة بينهما ، ونظرة **ابن رشيق** لهذه القضية يُلخّصها قوله: «اللّفظ جسم ، وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعُف بضعفه ، ويَقْوى بقوّته ، فإذا سلم المعنى واختلّ بعضُ اللّفظ كان نقصًا للشعر وهُجنةً عليه ، كما يُعرَضُ لبعض الأجسام من العرَج والشّلل والعوَر وما أشبه ذلك ، من غير أن تذهب الرّوح ، وكذلك إنْ ضعُف المعنى واختلّ بعضُه كان لِلَّفظِ من ذلك أوفر حظٍّ ، كالذي يعرِض للأجسام من المرض بمرض الأرواح... وكذلك إن اختلّ اللّفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى ، لأنّنا لا نجد روحا في غير جسم البتة»[15]. شبّه **ابن رشيق**اللّفظ بالجسم ، والمعنى بالروح ، وهذا التشبيه يدلُّ على أنّه يؤمن بالارتباط الوثيق بين اللفظ والمعنى ؛ فالعلاقة بينهما مبنية على التلاحم تماما كالعلاقة بين الجسد والروح ، وتبرز هذه العلاقة في تأثر كل منهما بالآخر قوةً وضعفًا. والظّاهر أنّ قضية اللّفظ والمعنى كما عالجها **ابن رشيق** وثيقة الصِّلة بمعياري الاتّساق والانسجام في لسانيات النص ، ذلك أنّ

الاتّساق يتعلق بالشكل أي بالبنية السّطحية للخطاب ؛ حيث يكون مبنيًّا بعضُه على بعض تركيبيا ، بينما الانسجام يتعلق بالمضامين أي بالبنية العميقة ؛ حيث يكون عالم النّص مبنيًّا بعضُه على بعض دلاليا ، وبناءً على ذلك فالجانب السّطحي للنّص يتمظهر في التحام اللفظ باللفظ ؛ وهو جسم النص ، بينما البنية العميقة تمثلها الدلالة وهي روح النص. وحتى تُكتمل صورة نسيج النص لابد من أن تكون ألفاظه مناسبة لمعانيه.

ومن مظاهر النصية في كتاب (العمدة) إدراك **ابن رشيق** أهمية سياق المقام في انسجام الخطاب ، فقد تنبّه للظروف التي تصاحب إنتاج النص الشعري ؛ ومدى تأثيرها في المتلقّي ، ولذلك رأى أنّه من الضروري مراعاة حال المخاطَبين المقصودين بالخطاب ، وقد أشار إلى هذه المسألة في باب (في آداب الشاعر) ، حيث قال: «لكلّ مقام مقال ، وشعرُ الشاعر لنفسه وفي مرادِه وأمورُ ذاتِه ــ من مزح ، وغزَل ، ومكاتبة ، ومجون ، وخمرية ، وما أشبه ذلك ــ غيرُ شعره في قصائد الحفل التي يقوم بها بين السلاطين... وشعرُه للأمير والقائد غيرُ شعره للوزير والكاتب ، ومخاطبته للقضاة والفقهاء بخلاف ما تقدّم من هذه الأنواع..»[16]. فمراعاة الظروف المحيطة بالمتلقّي ، وثقافته وعاداته ، ومرتبته الاجتماعية أمر مهم لتحقيق مبدأ الإفهام والتأثير والإقناع.

ويرتبط بالمقام أيضًا مراعاة الحالة النفسية للمتلقّي ، وهذا ما وقف عنده **ابن رشيق** ممثِّلًا لهذه الحالة بقصّة سليمان بن عبد الملك الذي خرج من الحمّام يريد الصّلاة ، حيث نظر في المرآة فأعجبه جماله ، وكان حَسَنَ الوجه ، فقال: أنا الملك الشاب فالتقته إحدى حظاياه ، فقال لها: كيف تريننني ؟ فقالت:(من الخفيف)

لَيْسَ فِيمَا بَدَا لَنَا مِنْكَ عَيْبٌ عَابَهُ النَّاسُ غَيْرَ أَنَّكَ فَـــانِي

أَنْتَ نِعْمَ الْمَتَاعُ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى غَيْرَ أَنَّ لَا بَقَـــــاءَ لِلْإِنْسَانِ

فتطيّر الخليفة بهذين البيتين ورجع ، فحُمَّ فما بات إلاّ ميّتًا تلك اللّيلة[17].

ومسألة المقام أو سياق الحال حظيت بعناية كبيرة من قِبَل علماء اللغة النصيين ؛ بل إنّ هذه المسألة كانت من المبرّرات الأساسية التي دفعتهم إلى تجاوز لسانيات الجملة إلى علم اللّغة النّصِّي في التحليل اللساني ؛ ولذلك لا نكاد نجد بحثاً في مجال لسانيات النص يخلو من معالجة مفهوم السّياق ، والحديثِ عن خصائصه ودوره في انسجام الخطاب. ولعلّ من

العبارات التي تلخِّص تصوّرَهم لنظرية السياق وعلاقتها بالنص ما قاله **محمد خطّابي**: «إن الخطاب القابل للفهم والتأويل هو الخطاب القابل لأن يوضع في سياقه»[18]. وعلى هذا نُظِر إلى السّياق في لسانيات النص على أنّه من أبرز المبادئ التي تُحقِّق للنّص تماسكه الدلالي.وتأتي أهمية سياق الموقف في علم اللغة النصي من منطلق كون النّص حدثا اتِّصاليا[19]. لذلك فالمتكلّم لكي يُحقّق مقصده في استعمال اللّغة ينبغي أن يمارس إجراءات في الإنتاج تناسب مقتضيات السِّياق.

وفي الباب نفسه نقف على قضية أخرى من قضايا اللّسانيات النصِّية ؛ تتمثّل في الإشارة إلى مسألة التفاعل النّصِّي ، ويمكننا تلمُّس ذلك في حديث **ابن رشيق** عن أهمية الرّواية في العمل الإبداعي الشعري ، فرواية الأشعار تقوّي الطّبع وتُوجّهُه ، وتُطْلِع الشاعر المبتدئ على مذاهب الشعراء وتصرُّفِهم في الكلام ، فيقتدي بهم ، ويسلك طريقهم حتّى تستقيم موهبته ، ولمّا كانت الرّواية بهذه الأهمية دعا ناقدُنا صاحبَ الصناعة إلى أن يكون من أهلها ، وفي ذلك يقول: «وليأخذ نفسه بحفظ الشعر والخبر ، ومعرفة النسب وأيّام العرب ؛ لِيستعملَ بعض ذلك فيما يريده من ذكر الأخبار ، وضرب الأمثال... فقد وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدِّمين يَفضُل أصحابه برواية الشعر ، ومعرفة الأخبار ، والتلمذة بمن فوقه من الشعراء ، فيقولون: فلان شاعر راوية ، يريدون أنّه إذا كان راوية عرف المقاصد ، وسهُل عليه مأخذ الكلام ، ولم يضِق به المذهب...»[20]. **فابن رشيق** يرى أنّ رواية الشعر هي زاد ينبغي أن يتزوّد به الشاعر ؛ لِمَا لها من حظٍّ عظيم في صقل المَوْهبة وشحذ الطّبع وتهذيبه. وهو رأي ينِمُّ عن إقرار واضح بأنّ الشاعر في العملية الإبداعية لا ينطلق من العدم ؛ وإنّما يعتمد على ما تراكم لديه من محفوظه سواء عن وعي أم عن غير وعي ، وعليه لا يمكن لأي شاعر أن يدّعي غير ذلك مهما طبقت شهرته الآفاق. هذه العملية التي يتأثر فيها المبدع بنصوص غيره هي التي تسمّى في الدّراسات اللّسانية الحديثة بالتناص ، وقد شاع هذا المصطلح في الستينات من القرن الماضي ، وكانت الناقدة الفرنسية **جوليا كريستيفا Julia Kristeva** من الأوائل الذين روَّجُوا له ، وهو يعني في جملة ما يعنيه حدوث علاقات تفاعلية بين نص وآخر ، أو بين نص ونصوص أخرى. وقد عدَّهُ **دي بوجراند De Beaugrand** واحدا من المعايير السّبع التي تُحقِّق للنّصِّ نصيَّتَه. والتناص عند هذا الباحث «يتضمّن العلاقات بين نصٍّ ما ونصوص أخرى مرتبطة به وقعت في حدود تجربة سابقة...»[21]. يستنتج من هذا المفهوم أن (التّناصّ) يعني توالدَ نصٍّ من نصوص أخرى أو تداخلَ نصٍّ مع نصوص أخرى. وفكرة تداخل النصوص هذه أفرد لها **ابن**

رشيق بابا خاصًّا سمّاه (باب السّرقات وما شاكلها)، وإن كان مصطلح السرقة يحمل مدلولًا سلبيا يوحي بمعنى السطو على ملك الغير، بينما مصطلح التناص يُشير إلى التفاعل والتداخل.ولعلّ ما يلفت النظر في باب السرقات الشعرية افتتاحيّته ، يقول **ابن رشيق**:«وهذا باب متَّسَعٌ جدًّا ، لا يَقدِر أحدٌ من الشعراء أن يدَّعي السلامة منه ، وفيه أشياء غامضة إلا عن البصير الحاذق بالصناعة ، وأُخَرٌ فاضحة لا تخفى على الجاهل المغفل»[(22)] . نستشف من هذا القول أمرا مهما جدًّا وهو أنّ الفعل الإبداعي لا يتأسس من فراغ ، ومن هنا يبرُز بكلِّ جلاء أنّ تفكير **ابن رشيق** يكشف عن وعي كبير بمسألة تداخل النصوص ، وهذه المسألة عالجها كذلك في أبواب متفرقة من الكتاب تحت مصطلحات عديدة تتضمّن فكرة التفاعل النصِّي ؛ كالتضمين ، والتلميح ، والإشارة.

ومن قضايا لسانيات النص في كتاب (العمدة) معالجته لظاهرة التَّكرار في النصوص معالجة نصية. صحيح أنّ **ابن رشيق** كان ينظر إلى ظاهرة التكرار نظرة معيارية ، فقسّمه إلى تكرار حسن وتكرار قبيح ، لكنّ حديثه عن التّكرار الحسن هو في حقيقة الأمر حديث عن أهميته في تماسك النص وتلاحم معانيه ، ويتّضح ذلك في قوله: «وللتَّكرار مواضع يحسن فيها ومواضع يقبح فيها: فأكثر ما يقع التَّكرار في الألفاظ دون المعاني ، وهو في المعاني دون الألفاظ أقل...ولا يجب للشاعر أن يُكرِّر اسماً إلاّ على جهة التشوّق والاستعذاب إذا كان في تغزل أو نسيب... أو على سبيل التنويه به والإشارة إليه بذكر إن كان في مدح... أو على سبيل التقرير والتّوبيخ... أو على سبيل التعظيم للمحكي عنه... أو على جهة الوعيد والتهديد إن كان عتابَ موجعٍ... أو على وجه التوجع إن كان رثاءً وتأبيناً... أو على سبيل الاستغاثة وهي في باب المديح... ويقع التّكرار في الهجاء على سبيل الشّهرة وشدّة التّوضيع بالمهجو...ويقع أيضاً على سبيل الازدراء والتهكّم والتنقيص...»[(23)] . فأنت ترى ناقدنا بنظرته الفاحصة كان يشير إلى الطريقة التي يبنى بها النص دلاليا عن طريق التكرار ، أي أنّ الموضوع الذي يدور حوله الحديث هو الذي يُملي على المتكلِّم الاستعانة بالتكرار لغرض معين ؛ مدح أو هجاء أو تغزّل أو تهكم وتحقير وغيرها. وقد ضرب **ابن رشيق** أمثلة عديدة تدلّ على دور التكرار في بناء موضوع الخطاب دلاليا ، من ذلك استشهاده بأبيات **الخنساء** في الإشادة والتنويه بأخيها **صخر**: (من البسيط)

وَإِنَّ صَخْرًا لَمَوْلَانَا وَسَيِّدُنَا وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو لَنَحَّارُ

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِـــــهِ نَارُ

فلمّا كان أخوها صخر هو موضوع الحديث أو هو بؤرة الخطاب ـ وَفق تعبير علماء لغة النص ـ كان تكرار اسمه ضروريا في بناء وحدة النص دلاليا.

وما يدلُّك أكثر على إدراك **ابن رشيق** علاقة التكرار بموضوع الخطاب ؛ وقوفه عند الغرض من تكرار (فبأيّ آلاء ربّكُما تُكذِّبان) في سورة الرحمن ، فقال: «ومن المعجز في هذا النوع قول الله تعالى في سورة الرحمن (فبأيّ آلاء ربّكُما تُكذِّبان) كلّما عدَّد منّة أو ذكَّر بنعمة كرّر هذا»[24]. **فابن رشيق** كان على يقين من أنّ بؤرة الخطاب في سورة الرحمن هي التذكير بنعم الله على عباده ، ومن ثمّ تكرّرت الآية الدّالّة على النِّعَم في السورة إحدى وثلاثين مرّة.وموضوع الخطاب أولاه علماء النص أهمية بالغة ، حيث قاموا ببحث العلاقات الدلالية بين المتواليات الجملية في النص ، وكيفية مساهمتها في تحديد موضوع الخطاب ، واعتمادا على هذه العلاقات الدلالية حدّدوا موضوع الخطاب بأنه «بؤرتُه التي توحِّده ، وتُكَوِّن الفكرة العامة له»[25]. ما يعني أنّ موضوع الخطاب هو نواة مضمون النص الذي يعالج قضية محدّدة تبقى المضامين الجزئية للخطاب متصلة بتلك النواة ، مرتبطة بها مهما امتدّ النص في متواليات الجملية.

ويتّضح من النصوص التي قدّمها **ابن رشيق** في باب التَّكرار أنّ هذه الظاهرة عنده وثيقة الصلة بقصد المتكلِّم ، فالمتكلِّم يُكرِّر بقصد الإلحاح على المعنى وتوكيده وتثبيته في الأذهان ، والقصد كما أشرنا في مقدّمة هذه الورقة البحثية هو أحد المعايير السّبع التي ينبغي أن تتوفّر في النّصوص ، حيث «يتضمّن موقف منشئ النص من كون صورة ما من صور اللّغة قصد بها أن تكون نصًّا يتمتّع بالسَّبك والالتحام ، وأنّ مثل هذا النص وسيلة من وسائل متابعة خطّة معيّنة للوصول إلى غاية بعينها»[26].

والتّكرار في لسانيات النص يُعَدُّ كذلك واحدًا من وجوه الإحالة إلى سابقالتي من شأنها إحداث الترابط بين الوحدات المكوّنة للنّص ، فالمتأخِّر يحيل إلى المتقدِّم فينتج الترابط بين الجملتين أو العبارتين ، ما يعني أنّ التّكرار يؤدّي وظيفة الرّبط الإحالي على المستوى المعجمي ، ولهذا سمّاه الأزهر الزنّاد بالإحالة التكرارية لإدراكه وظيفة التكرار في الإحالة القبلية[27].هذا المفهوم نجد له ما يعضده في كتاب (العمدة) في حديث **ابن رشيق** عن بعض أشكال البديع الشبيهة بالتكرار ؛ كالتّصدير مثلا ، والتصدير عنده يعني: «أن يُرَدَّ أعجاز الكلام

على صدوره ، فَيَدُلُّ بعضُه على بعض»[28].فإذا أردنا أن نُعبّر عن هذا المفهوم بلغة علماء لغة النص نقول: يُربَط العجُز بالصَّدر عن طريق إحالة اللّفظ المكرَّر إلى اللّفظ الأوّل المتقدّم ذكره ، فيتحقّق بذلك التماسك بين شطري البيت.وهي كما تلاحظ مفاهيم وتصوّرات تكاد تكون واحدة ، إنّما الاختلاف في التعبير عنها بمصطلحات مغايرة.

ومن التكرار ما يسمّيه **ابن رشيق** بالترديد: «وهو أن يأتي الشاعر بلفظة متعلّقة بمعنى ، ثمّ يردُّها بعينها متعلّقة بمعنى آخر في البيت نفسه ، أو في قسيم منه ، وذلك نحو قول **زهير**:(منالبسيط)

مَنْ يَلْقَ يَوْمًا عَلَى عِلاَّتِهِ هَرِمًا يَلْقَ السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلُقَا

فعلَّق (يلقَ) بهَرِمٍ ، ثمّ علّقها بالسّماحة ، وكذلك قوله أيضاً:(من الطويل)

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنَلْنَهُ وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّم

فردّد(أسباب) على ما بيّنت»[29].فهو يستعمل التّكرار بمعنى الترديد ، ثم لا يتوانى في وصف هذا الترديد بالتّعلّق ، وهو لا يقصد بالتّعلّق إلاّ ربط الكلم بعضه ببعض ، ما يجعلنا نُقِرُّ أنّ ناقدنا كان يُدرك تمام الإدراك دور التّكرار في سبك البيت الشعري ، وإن كنّا ندرك أنّ كلامه عن علاقة التَّكرار بالرّبط كان في شكل إشارات ، ولكن مهما كان جهده في هذا المجال ؛ فإنّه قد مهّد الطريق لعلماء اللغة النصّيين الذين أوْلوا الرّبط بالتَّكرار جزءًا هامًّا من اهتماماتهم النّصّية.

وممّا تقدّم يتبيّن لنا أنّ **ابن رشيق** كان يفيد من علوم النقد والأدب ، وعلم المعاني ، والبيان ، والبديع ، وغيرها من العلوم الموجودة في زمانه ، ثم قام بتسخير هذه العلوم جميعا في خدمة النص الشعري ، وهو بهذا الصّنيع لا يختلف عن علماء النص الذين أفادوا من إنجازات العلوم المختلفة التي تساهم في تحليل النصوص ، ما جعل ميدان بحثهم متداخل الاختصاصات ، وهي الفكرة التي أكّدها **فان دايك Van Dijk** في كتابه (علم النص مدخل متداخل الاختصاصات) ، ولاشك في أنّ هذا التداخل في الاختصاصات هو الذي جعل من لسانيات النص علما مهما في تحليل الخطاب اللغوي ، ولاشك أيضًا في أنّ استعانة **ابن رشيق** بالعلوم المختلفة في عصره ـ وهو يقدّم آراءه النقدية والبلاغية ـ قد جعلت من عمله جديرا

بالاهتمام ، ويكفي دليلا على ذلك أنّ كتاب (العمدة) كان وما يزال محل إعجاب النقاد والباحثين قديما وحديثا.

هذا غيض من فيض ، فكتاب (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده)، وغيره من كتب التراث حبلى بهذه الإشارات التي تتفق وإلى أبعد الحدود مع مقولات الدرس اللساني النصّي الحديث ، وبالتالي فالأمر يحتاج فقط إلى نفض الغبار عن هذا التراث الضخم ، وإعادة قراءته وفق رؤى الدرس اللغوي الحديث ، وحينها سنكتشف أنّ علماءنا لم يكونوا مقصّرين أبدًا في هذا الحقل المعرفي أو ذاك ، بل كانوا هم من سبق غيرَهم في التنظير لكثير من المسائل اللغوية.

الهوامش:

[1] - يُنظر: روبرت دي بوجراند ، النص والخطاب والإجراء ، ترجمة تمّام حسّان ، عالم الكتب ، ط2 ، القاهرة ، 2007م ، ص 103ـ105

[2] - يُنظر: ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محيي الدينعبد الحميد ، دار الجيل ، ط5 ، بيروت ، لبنان ، 1981م ،ج1 ، ص 10 وما بعدها.

[3] - ابن خلدون ، المقدّمة ، دار الرائد العربي ، ط5 ، بيروت ، لبنان ، 1982م ، ص 574.

[4] - ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ج1 ، ص 218.

[5] - المصدر نفسه ، ج1 ، ص 234.

[6] - البيتان من قصيدة له يمدح فيها إبراهيم بن الحسن بن سهل.

[7] - المصدر نفسه ، ج1 ، ص 239.

[8] - يُنظر:جميل عبد المجيد ، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية ، الهيئةالمصرية للكتاب (د.ط)، القاهرة ، 1990م ،ص71.

[9] - ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ج2 ، ص 117.

[10] - يُنظر: صالح مفقودة ، رأي ابن رشيق في بنية القصيدة ومكانته في النقد الأدبي ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة بسكرة ، الجزائر ، العدد الرابع ، ص 129.

[11] - فان دايك ، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات ، ترجمة سعيد حسن بحيري ، دار القاهرة للكتاب ، ط1 ، القاهرة ، مصر ، 2001م ، ص 75.

[12] - يُنظر: جميل عبد المجيد ، لسانيات النص ونقد الشعر مراجعة نقدية في الدراسات العربية ، ضمن كتاب محمد خطابي لسانيات النص وتحليل الخطاب ، كنوز المعرفة ،ط1 ، عمّان ، الأردن ، 2013م ، مج1 ، ص270.

[13] - يُنظر: ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ج1 ، ص 225.

[14] - يُنظر: براون ويول ، تحليل الخطاب ، ترجمة لطفي الزليطني ومنير التريكي ، النشرالعلمي والمطابع ، جامعة الملك سعود (د.ط) ، الرياض ، السعودية ، 1997م ، ص 167 وما بعدها.

[15] - ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ج1 ، ص 124.

[16] - المصدر نفسه ، ج1 ، ص 199.

[17] - يُنظر: المصدر نفسه ، ج2 ، ص 136.

[18] - محمد خطابي ، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ، المركز الثقافي العربي ، ط2 ، الدار البيضاء ، المغرب ، 2006م ، ص 56.

[19] - روبرت دي بوجراند ، النص والخطاب والإجراء ، ترجمة تمّام حسّان ، ص 64.

[20] - ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ج1 ، ص 197.

[21] - روبرت دي بوجراند ، النص والخطاب والإجراء ، ترجمة تمّام حسّان ، ص 104.

[22] - ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ج2 ، ص 280.

[23] - المصدر نفسه ، ج2 ، ص 73 وما بعدها.

[24] - المصدر نفسه ، ج2 ، ص75.

[25] - عزة شبل محمد ، علم لغة النص النظرية والتطبيق ، مكتبة الآداب ، ط2 ،القاهرة ، 2009م ، ص191.

[26] - روبرت دي بوجراند ، النص والخطاب والإجراء ، ترجمة تمّام حسّان ، ص 103.

[27] - يُنظر: الأزهر الزناد ، نسيج النّص(بحث في ما يكون به الملفوظ نصًّا) ، المركز الثقافي العربي ، ط1 ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1993م ، ص 119.

[28] - ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ج2 ، ص 3.

[29] - المصدر نفسه ، ج2 ، ص 03.

قائمة المصادر والمراجع:

1- ابن خلدون ، المقدّمة ، دار الرائد العربي ، ط5 ، بيروت ، لبنان ، 1982م.

2-ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده (جزءان) ، تحقيق محمد محيي الدينعبد الحميد ، دار الجيل ، ط5 ، بيروت ، لبنان ، 1981م.

3-الأزهر الزناد ، نسيج النّص(بحث في ما يكون به الملفوظ نصًّا) ، المركز الثقافي العربي ، ط1 ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1993م.

4- جميل عبد المجيد ، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية ، الهيئةالمصرية للكتاب (د.ط) ، القاهرة ، مصر ، 1990م.

5- جون براون وجورج يول ، تحليل الخطاب ، ترجمة محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي ، النشرالعلمي والمطابع ، جامعة الملك سعود (د.ط) ، الرياض ، السعودية ، 1997م.

6-روبرت دي بوجراند ، النص والخطاب والإجراء ، ترجمة تمّام حسّان ، عالم الكتب ، ط2 ، القاهرة ، مصر ، 2007م.
7- صالح مفقودة ، رأي ابن رشيق في بنية القصيدة ومكانته في النقد الأدبي (مقال) ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة بسكرة ، الجزائر ،2006م ،العدد الرابع.
8- عزة شبل محمد ، علم لغة النص النظرية والتطبيق ، مكتبة الآداب ، ط2 ، القاهرة ، مصر ، 2009م.
9- فان دايك ، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات ، ترجمة سعيد حسن بحيري ، دار القاهرة للكتاب ، ط1 ، القاهرة ، مصر ، 2001م.
10- محمد خطابي ، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ، المركز الثقافي العربي ، ط2 ، الدار البيضاء ، المغرب ، 2006م.
11- محمد خطابي ،لسانيات النص وتحليل الخطاب (مجلّدان) ، كنوز المعرفة ،ط1 ، عمّان ، الأردن ، 2013م.